المسلمون في بلجيكا

هل هم «أعداء من الداخل»

أم «شركاء في المواطنة*؟»

هيرمان ديلاي

مقدّمة:

١- أصبحت مقولة الأستاذ في جامعة هارفارد، صموئيل هانتنغتون، عن «صراع الحضارات» معروفة على نطاق واسع اليوم[١]. وانطلاقاً من رؤيته بأن الصراع في عالمنا ينشأ تكراراً على خطوط المواجهة الثقافية التي تأسست تاريخياً، يدعو هذا المفكرُ الغربَ للتيقّظ في مواجهة الخطر الناجم عن اتحاد قوى الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية. فبعد اندحار الشيوعية، يعتقد هانتنغتون أن «الصراع» مع المنافسين الجدد يلوح وشيكاً، هذا إذا لم يكن قد بدأ فعلاً[٢]. ويبدو أن العالم الإسلامي يتجه نحو المواجهة مع الغرب: فالإسلام، كما يرى المفكر، له تخوم دموية[٣]. وحرب البوسنة التي أدانها الكثيرون كقضية إبادة جماعية ضد المسلمين، يراها هذا المفكر مجرد نوع من «الصراع الحدودي» العنيف، الذي يؤكد فكرته حول أن الجبهة الأمامية للكتلتين المتواجهتين هنا هي القارة الأوروبية ذاتها.

ليس من غير الطبيعي أن تنظر غالبية المسلمين إلى خطاب هانتنغتون المنذر بالخطر كاستمرار للعداء المسيحي القديم للدين والثقافة الإسلاميتين. وفي الغرب ذاته، غالباً ما يُنظر إلى هذا الخطاب التحذيري كرد مفهوم على خطر الغزو الإسلامي الذي يعود تاريخه إلى بدايات العصور الوسطى. غير أن الاكتفاء بهذا

الكلام وعدم الانتباه لخصوصيات العداء للإسلام في الغرب في عصرنا هذا، يوقعنا في خطأ جسيم[٤]. تبلور العداء الحديث للإسلام والمسلمين أولاً في القرن التاسع عشر، وارتبط في ذلك الوقت بالنظريات العنصرية الجديدة وكذلك بالعلوم الإنسانية الجديدة في أوروبا، والتي ما تزال فاعلة ليومنا هذا مع تأسيس الوحدة الأوروبية. والدليل على ذلك هو رفض غالبية الأحزاب السياسية البلجيكية المتواصل منح حق التصويت لأولئك الذين يوصفون بأنهم «**ليسوا من مواطني الاتحاد الأوروبي**»، وغالبيتهم من أصل تركي ومغربي.

٢- وُصِم الإسلام بتعابير غير لائقة مثل «**جزّار الهيلينيّة**»، من قبل أحد أساتذة فقه اللغة الكلاسيكي الحديث: العالم الألماني تيودور مومسين (١٨١٧-١٩٠٣). قبل ذلك بثلاثين سنة، دعا «مؤسس» آخر للدراسات الكلاسيكية ذاتها - برتولد نيوبار (١٧٧٦-١٨٣١) لحرب أوروبية ضد الإسلام[٥]. لم يقف هؤلاء العلماء الألمان وحدهم في معاداتهم للإسلام، فلقد جاراهم في هذا الخطاب زميلهم الفرنسي إرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢) المفكر الحر الشهير ومؤسس فقه اللغة السامية، الذي تكلّم عن تعارض لا يمكن إصلاحه بين الإسلام واليونانية القديمة؛ أي «العقلانية» الأوروبية. والحقيقة أن رينان أسهم بإعادة اكتشاف الفلسفة الإسلامية من خلال كتابه الشهير عن ابن رشد[٦]. لكنه في ذات الوقت، نشر نوعاً من ترجمة فلسفية لـ «**نظرية عن العِرق**» كان قد طوّرها صديقه الحميم الكونت دي غوبينو.[٧]

فَقدَ رينان إيمانه المسيحي وحوّل فقه اللغة إلى نوع من «الدين»، وبعمله هذا كانت الرومانسية ملهمه، بمعنى الإيمان بما يلي:

أ- كل أمة أو ثقافة تمتلك «روحها» الخاصة وطبيعتها[٨].

ب- وأن هذه الطبيعة تتوافق مع الخصائص المحددة للغتها.

ج- وكنتيجة، فإن دراسة اللغة هي الطريق إلى كل «الحقيقة». في كتابه علم اللغة السامية، عام ١٨٥٥، استنتج رينان بحسم أن اليهود والمسلمين أدنى مرتبة من الآريين[٩]. وفي خطابه الافتتاحي عام ١٨٦٢ في كوليدج دو فرانس، كما في مؤتمره في السوربون عام ١٨٨٣ حول «الإسلام والعلم»، أعلن رينان أن الإسلام، وبسبب تعصبه وعقيدته، كان بجوهره عاجزاً عن العقلانية، والعلم أو الفلسفة. وقال: إن الإسلام كدين يحتوي على «أشياء جميلة»، ولكنه بالنسبة للعقل الإنساني أثبت أنه بغيض. وكنتيجة، فإن

مستقبل البشرية هو مع أوروبا «الآرية» شرط أن يتم تدمير العنصر السامي في الثقافة الأوروبية (المسيحية مثلاً) والقوة الثيوقراطية للإسلام[١٠].

٣- إضافة إلى كونه عصر ما يُسمى بالعلوم الإنسانية (فقه اللغة، علم اللغة المقارن، التاريخ، تاريخ الأديان، إلخ)، كان القرن التاسع عشر، في الوقت ذاته، عصر الاستعمار الأوروبي[١١]. وبما أن التوسع الاستعماري شكل «**خلفية كافة العلاقات مع الإسلام في القرن التاسع عشر**»، قام أكاديميون وعلماء بعقلنة العداء التقليدي للإسلام، نحو تشريع إيديولوجي لحروب أوروبا الاستعمارية[١٢]. وكانت الذروة في ابتداع ما يسمى بمفهوم «**الإنسان الإسلامي**» (هومو إسلاميكوس) - وهو تنميط عنصري ما زال مستخدماً لغاية اليوم في بعض الدوائر الأكاديمية[١٣]. كما تمّ تعزيز هذا التوجه الاستعماري بواسطة أيديولوجيات برجوازية قومية يجمع في ما بينها أسطورة مشتركة تقول بوجود حضارة أوروبية ذات ثقافة واحدة في الأساس هي وريثة حضارة اليونانيين القدماء «البيض». هذه الصورة عن الذات كانت، بطبيعة الحال، نوعاً من خداع النفس. فمن وجهة نظر ثقافية وعرقية كانت أوروبا التاريخية (وستبقى دائماً) تمتاز بتعدّد التقاليد، وكانت وستبقى دائماً نتاج الهجرات؛ ولذلك فإن الأسطورة اليونانية كانت محقّة عندما صورت «أوروبا»، التي اختطفت من قبل الإله زيوس الأولمبي وهو في هيئة ثور، كابنة ملك فينيقي؛ أي فلسطيني.

كان الإسلام والثقافة الإسلامية من بدايتهما عنصراً مكوّناً في عملية الحضارة الأوروبية، جنباً إلى جنب مع التقاليد الهيلينية والمسيحية واليهودية والعلمانية. ولم يكن الفيلسوف المسلم ابن رشد، مواطن قرطبة، أقلّ «أوروبية» من العالم الديني المسيحي توما الإكويني. ولا شك في أن معالم تاريخية مثل مسجد قرطبة، وقصر الحمراء في غرناطة، وجسر موستار (المدمر حالياً ويا للأسف)، وسلمي كاميسي في أدرنة... تنتمي إلى تراث أوروبا الثقافي بالقدر نفسه الذي تنتمي إليه معالم أخرى مثل البارثينون في أثينا أو رسومات فان أيك في أوائل عصر النهضة. وهكذا، يتوجب علينا فعلاً، كما أعتقد، «**أن نتكلم عن حضارة أوروبية، كحضارة يهودية - مسيحية - إسلامية**»[١٤].

من ناحية أخرى ولدى إقامة الدولة الأمة في أسبانيا في القرنين السادس والسابع عشر، جرى «تطهير عرقي» لكافة آثار المسلمين والإسلام المدني في الغرب. ومع استمرار بقاء نوع من الإسلام السري، إلا أن الإسلام المدني الأوروبي اقتصر وجوده على وسط وجنوب شرقي أوروبا لمدة قرنين من الزمن.

المسلمون في بلجيكا اليوم

١- في النصف الثاني من القرن الماضي أدت هجرة العمال الكثيفة من بلدان البحر المتوسط، إلى تحويل الإسلام، من جديد، إلى واقع أوروبي غربي. وفي السنوات الأخيرة من ذلك القرن أضحى الإسلام في جنوب شرق أوروبا، وأكثر من أي وقت مضى، في موقف دفاعي[١٥].

في بلدان وسط الاتحاد الأوروبي أصبح عدد المسلمين يقارب العشرة ملايين، (والعدد ذاته تقريباً في شرق أوروبا)[١٦]، وهم منهمكون في عملية مأسسة في وسط مجتمعات علمانية. والمسيحية في المجتمعات الغربية تتراجع أكثر فأكثر نحو الأرياف، بينما يبرز الإسلام كظاهرة مدينية: المسلمون وجوامعهم تتمركز في المدن والبلدات، والخصائص الرمزية للدين والثقافة الإسلاميتين باتت جلية في البيئة المدينية هذه. نتيجة لذلك، تصبح أوروبا، أكثر من أي وقت مضى، مساحة تلتقي فيها التقاليد الإسلامية، والمسيحية واليهودية والعلمانية «لتقاتل، وتدعم وتلقح بعضها بعضاً».[١٧]

قبولنا بمقولة هانتنغتون سيعني أن «خط القتال» لن يكون بين قارات أو أجزاء مختلفة من القارة الأوروبية، وإنما سيكون فعلاً في وسط مدننا ومجتمعاتنا في أوروبا الغربية ذاتها. هل نتجه عندئذ، بعد فترة من «الصراعات» الدولية (إيران، حرب الخليج...)، إلى نوع من «حرب أهلية» في المجتمع الغربي ذاته؟ وهل يصح اعتبار «المسلمين» في مجتمعاتنا؛ أي الأتراك والمغاربة والآخرين، وبغض النظر عن نسبة اندماجهم، بأنهم «الأعداء من الداخل»، كما تصنفهم الأحزاب اليمينية المتطرفة؟ وهل يكونون معرضين، في النهاية، للطرد مرة أخرى كما حصل لمغاربة الأندلس في أسبانيا في أوائل القرن السابع عشر؟[١٨]

لا أحد ينكر وجود إشارات يبدو أنها تؤكد ظاهرياً مثل هذه القراءة المتشائمة، منها ما يقع في مدننا من أحداث شغب ومواجهات بين شبان مسلمين ورجال شرطة نظير ما حدث منذ فترة قصيرة[١٩]، على سبيل المثال، في بلدة لوكيرين الفلمنكية الصغيرة، الأمر الذي حدا برئيس البلدية الكاثوليكي لاتخاذ اجراءات خالية من أي تسامح. وهناك مثال أوضح يتمثل ببناء «سور حديدي» في أندرلخت (بروكس) لفصل (أي حماية) القسم «الأبيض» من البلدة عن القسم «المسلم» الأفقر.

هناك عنصرية جديدة تشرعن هذا الاستقطاب المتمادي بين من يُسمون بالسكان

الأصليين ومن يُسمون بالمهاجرين(٢٠)، ليس فقط في بلجيكا وإنما في بلدان أوروبية أخرى أيضاً. هذه العنصرية الجديدة التي تصاحب عملية بناء الوحدة الأوروبية يمكن اعتبارها معادية للإسلام(٢١). وبينما هي تتأسس بموازاة الخطوط نفسها التي قامت عليها معاداة السامية في الثلاثينات(٢٢)، تستند هذه العنصرية الأوروبية الجديدة على الاستغلال العرقي للاختلافات الثقافية والدينية بين «الأوروبيين» و«المسلمين». وهي تعمل من خلال إقامة تماثل بين «التركي» و«المسلم»، بين «المغاربي» و«المسلم»، وبشكل عام بين «المهاجر» و«المسلم»، ولقد عبّر فريد هاليداي عن هذا بقوله: «**إنها لا تحتوي على قدر كبير من العداء للإسلام كدين، وإنما العداء للمسلمين، للجماعات التي تدين بالإسلام لا غير، والتي تشكل خاصيتُها الإسلامية - أكانت حقيقية أم مخترعة - أحد مواضيع التحامل والتحيّز**»(٢٣). إن أحزاب اليمين المتطرف، التي تتغذى من هذا العداء للمسلمين وتغذيه في الوقت نفسه، تستغل هذا الوضع في بلجيكا وفي بلدان أوروبية أخرى، من أجل تقويض الديمقراطية وكسب أصوات الناخبين.(٢٤)

مع ذلك، هناك إشارات إيجابية متزايدة يمكن أن تؤشّر إلى اتجاه آخر يتجسّد في مجتمع ديمقراطي يرغب حقاً بتأكيد تعدديته الثقافية والعرقية. ويتضمن هذا بطبيعة الحال وضع حد لكافة أنواع التمييز ضد المسلمين، وحصول السكان المسلمين، والشباب منهم بوجه الخصوص، على الفرصة كي يسهموا في التطورات الاجتماعية لبلدهم.

٢- يتزايد عدد السكان المسلمين في بلجيكا بسرعة - منهم من لديهم خلفية إسلامية مهاجرة، ومنهم الذين يعتبرون أنفسهم مسلمين (ومن ضمنهم الذين تحولوا للإسلام). والأرقام الحقيقية غير دقيقة لأسباب منها:

أ- أن معيار الجنسية يصبح غير ذي صلة أكثر فأكثر، كون الناس المتحدّرين من بلدان إسلامية يحصلون على الجنسية البلجيكية تدريجياً.

ب- تعريف الهوية الإسلامية تكتنفه فروقات كثيرة ابتداء من المؤمنين الممارسين إلى العلمانيين واللاأدريين( ). في بداية التسعينات قدّر عدد الناس ذوي الخلفية الثقافية الإسلامية في بلجيكا بـ ٢٨٥ ألفاً(٢٦) - أكثر من ٢,٥٪ من مجموع السكان - والآن أصبح عددهم يزيد على ٣٥٠ ألفاً، ثلثهم تقريباً من أصول تركية. يعيش نصف هؤلاء الأتراك في فلاندرز، وربعهم في بروكسل والربع الباقي في فالوني.

بالتزامن مع هذا النمو السكاني، انتشرت الجوامع والمصليات الإسلامية التي تأسس

معظمها على قاعدة آحادية عرقية، وجميعها تقريباً تعبّر عن «إسلام ذكوري»[٢٧]. في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، أصبح عدد أماكن العبادة الإسلامية في بلجيكا ٢٩٠، ثلثها تقريباً «تركية»؛ كما أن أكثر من ثلثي المساجد التركية تُشرف عليها مديرية شؤون الأديان في الحكومة التركية، بينما يسيطر على ما تبقى منها جماعات أصولية.

وإذا أضفنا إليها المساجد العربية (معظمها مغاربي)، يصبح لدينا بنية تحتية من المساجد البلجيكية التي «**تقارب كثافتها ما هو قائم في بلاد المنشأ الإسلامية**».[٢٨]

٣- بصرف النظر عن الأرقام الدقيقة، لا أحد ينكر أن الإسلام أضحى «**واقعاً جماعياً مقبولاً في وسط المجتمع البلجيكي**»[٢٩]، ومن حيث العدد يمثل المسلمون ثاني أكبر طائفة دينية في البلد[٣٠]. وبكلمة أخرى، يمكن القول إن: الإسلام هو أكبر أقلية دينية في بلجيكا، وعدد المسلمين يفوق كثيراً عدد البروتستانت، واليهود، وغيرهم...

إن استيطان عدد كبير من المسلمين في بلجيكا هو ظاهرة اجتماعية لا يمكن إلغاؤها؛ ولذلك فإن السؤال الأساس الذي يواجه أي مجتمع يعتبر نفسه ديمقراطياً وتعددياً، يتعلق بالمكانة الاجتماعية والمساحة الثقافية التي يرغب هذا المجتمع بمنحها أو التنازل عنها لصالح هذه الأقليات الثقافية والعرقية. هل نرغب فعلاً بالسماح لهذه القطاعات الجديدة من السكان بأن تحافظ على هويتها الثقافية والدينية الجماعية؟ علماً أن ذلك سيتم وفقاً لحقوق الإنسان الأساسية التي يكفلها الدستور البلجيكي والمعاهدات الدولية التي وقعتها بلجيكا. أم أن أحدنا سيطالب، انطلاقاً من خوفه غير المنطقي على مستقبل الدولة العلمانية، المسلمين بقبول نوع من تخصيص أو علمنة الإسلام، وهو ما يعادل بالنسبة للأكثرية الساحقة من المسلمين مطالبتهم التخلي عن دينهم[٣١]؟ وكون تركيا تقدم دستورياً كدولة علمانية، لا يعني الكثير بالنسبة للأتراك الذين يعيشون في بلجيكا؛ لأن أغلبية هؤلاء هاجروا من المناطق الريفية في تركيا.

٤- من منظور حقوق الإنسان الأساسية، لا أحد ينكر أن بلجيكا بدأت بخطوة جيدة عندما أصدرت عام ١٩٧٤ قانوناً يمنح المسلمين حق العبادة على قدم المساواة مع الأديان الراسخة تاريخياً في البلاد: الكثلكة[٣٢]، البروتستانتية، واليهودية[٣٣]. وكان من نتائج هذا القانون السريعة (بعد عام تقريباً) أن سُمح بتعليم الإسلام في المدارس الحكومية على الأسس ذاتها التي للأديان الأخرى. وحالياً، يوجد حوالي ٧٠٠ أستاذ مسلم يقومون بالتدريس الإسلامي في المدارس الابتدائية والثانوية وتدفع الدولة أجورهم

(المتواضعة)[٣٤]. وتُعزى العيوب المالية والمهنية في أوضاع هؤلاء إلى عدم وجود هيئة تمثيلية للمجموعة المسلمة البلجيكية. هذه الهيئة ضرورية بالنسبة للقانون ولمسائل تتعلق بالممتلكات، وتكون مماثلة لـ «رأس الطائفة» عند المجموعة الكاثوليكية.

لقد سمح قانون ١٩٧٤ أيضاً بتوفير احتياطات مالية من أجل تكاليف البنية التحتية (بناء وصيانة أماكن العبادة) والموظفين (مثل رواتب وتعويضات أئمة المساجد)، وأهمية هذه الالتزامات المالية من قبل الدولة البلجيكية – التي هي دولة علمانية تقوم على مبدأ الفصل بين «الكنيسة» و«الدولة» – يمكن قياسها عندما نعرف أن الكنيسة الكاثوليكية البلجيكية تتسلّم سنوياً من الدولة لا أقل من عشرة مليارات فرنك بلجيكي. وهذا المبلغ يدفعه بطبيعة الحال دافع الضرائب البلجيكي – أي من قبل الكاثوليك وغير الكاثوليك ومنهم المسلمين –، أما بالنسبة للمسلمين فإن هذه المنافع المالية التي أقرّها قانون ١٩٧٤، لم يتم وضعها موضع التنفيذ لغاية اليوم. وهذا يعني أن السكان المسلمين كانوا يسهمون مالياً ولمدة ربع قرن في نظام كانوا هم أنفسهم معزولين عنه. أما سبب هذا الغبن فيعود، كما في مشاكل وضع المعلّمين المسلمين، إلى عدم وجود تحديد لهوية سلطة مسلمة، وهذه مسألة لم تجد لها حلاً حتى هذه اللحظة وذلك لأسباب عديدة.

٥– ترافق هذا التمييز المالي ضد المسلمين البلجيك مع انتهاكات للحقوق الأساسية لحرية الأديان التي يكفلها الدستور البلجيكي، مثل حقك أن تُدفن حسب فلسفتك أو إيمانك الديني؛ وبشكل عام، المسلمون في بلجيكا لا يستطيعون، لغاية الآن، دفن أحبائهم في المقبرة التي تخص مكان إقامتهم. والشيء نفسه ينطبق على الحقوق الدينية في المدرسة، في السجن، وفي المستشفى: مثل حقك أن تأكل الطعام الذي يتم تحضيره حسب مواصفات ديانتك، وحقك في حماية نفسك من الانتهاكات الجسدية مثل وضع غطاء الرأس وارتداء الملابس المحتشمة، وحقك بالاحتفال بأعيادك الدينية، إلخ... تُضاف هذه الانتهاكات إلى التغطية السلبية عادة للإسلام من قبل وسائل الإعلام المختلفة، وإلى النزاعات المعتادة في المدارس (حول غطاء الرأس – «حرب الحجابات») كما دعيت في فرنسا، والوصم المنتظم للقيم والرموز الإسلامية بأنها عقبات في وجه اندماج سهل للمهاجرين المسلمين في المجتمع، وطبعاً هناك الأشكال العديدة «**للممارسات العنصرية اليومية**» التي يرتكبها الموظفون مثل رجال الشرطة وغيرهم. وإذا جمعنا كل هذه الانتهاكات والممارسات معاً، فإنها ولا شك تجعل العلاقة بين الأكثرية والأقلية المسلمة غير مستقرة ومتوترة.

بطبيعة الحال، إن هذا الوضع يضغط بثقله على التعايش السلمي بين المجموعات المختلفة، وبالتالي على المستقبل الديمقراطي والتعددي للمجتمع البلجيكي. لقد نُشر منذ شهور قليلة تقرير يبيّن نتائج مشروع بحثي أجرته جامعة بيليفلد الألمانية، يركز البحث على مواقف الشباب الألماني من أصول تركية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥-٢١ سنة، فكانت النتائج مرعبة ومنذرة بالخطر. فهؤلاء الشباب طبقاً لمدير المشروع البرفسور ويلهلم هيتماير، يزدادون «أصولية»، وهم يميلون أكثر فأكثر لاستخدام العنف لأسباب دينية؛ لأنهم يواجهون مصاعب أثناء محاولاتهم الاندماج في المجتمع. السبب الكامن وراء هذه النتائج المزعجة ليس الدين الإسلامي، وإنما هو المجتمع الأوروبي ذاته الذي، حسب البروفسور هيتماير، يُحبط عملية الاندماج. وفي الحقيقة ليس الشباب الألماني من أصول تركية هم وحدهم الذين تواجههم هذه المشكلة، بل كافة المهاجرين المسلمين في بلدان أوروبا. إن هؤلاء الشباب ينبغي أن يكونوا أعضاء كاملي الحقوق في مجتمعنا، ولكنهم في الحقيقة يشعرون على الدوام بأنهم مرفوضون.(٣٥)

يجب أن يكون واضحاً الآن، أن رفض المجتمع الغربي العلماني إتاحة المجال للمهاجرين من البلدان الإسلامية، وخاصة الشباب من الجيلين الثاني والثالث، للتعبير عن هويتهم الإسلامية – مثل عدم الاعتراف بحق الفتيات والشابات المسلمات بوضع غطاء الرأس في المدارس – إن هذا الرفض هو أحد الأسباب المهمة لتزايد سوء العلاقة بين الأكثرية غير المسلمة والأقلية المسلمة.

خاتمة:

لحسن الحظ، توجد أيضاً إشارات لموقف أكثر إيجابية؛ بعد موافقة الحكومة مؤخراً على تنظيم انتخابات لاختيار مجلس تمثيلي للمجموعات الإسلامية البلجيكية. ومؤخراً أيضاً، تمت الموافقة على قانون جديد يتعلق بأماكن دفن الموتى، حيث ستخصص أقسام خاصة بالمسلمين في المقابر المحلية.

ومع ذلك، فإن المساواة في التعامل على المستوى المؤسسي، لو تحقق فعلاً، ليس كافياً لتمكين الإسلام من تطوير قدراته الروحية والاجتماعية في وسط مجتمع علماني، وخاصة بالنسبة للشباب المسلم من الجيلين الثاني والثالث؛ ولذلك، فإن تقليص العنصرية والعداء للمسلمين إلى ظاهرة هامشية لا يعتبر كافياً. فبالإضافة إلى اتخاذ خطوات

اجتماعية ضرورية (تخفيض أعداد العاطلين عن العمل في أوساط السكان المهاجرين)، فإن سياسة فعالة ضد العنصرية تتطلب تقديم حزمة من الإجراءات في المجال الثقافي، مثل وسائل الإعلام والتعليم. وعلى سبيل المثال، ينبغي تقديم العربية والتركية في المدارس الثانوية كلغتين اختياريتين لكافة التلامذة، كما يجب أن تتضمن المناهج التعليمية في مدارسنا تاريخ وثقافة بلدان البحر الأبيض المتوسط من مصادرها، وتاريخ الهجرات إلى بلجيكا وأوروبا، كذلك يجب تدريس التاريخ المقارن للأديان، إلخ. والهدف النهائي ينبغي أن يكون «ثقافة مشتركة» للمجتمع البلجيكي ككل.

على مستوى الثقافة الفكرية، فإن هناك شرطاً مهماً لجعل الإسلام جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الغربي، وهو تقديم برنامج للدراسات الإسلامية على المستوى الجامعي. يوجد حالياً أكثر من ٣٥٠ ألف مسلم يعيشون في بلجيكا، وهذا العدد في تزايد مستمر. وإذا لم نوفر للأجيال الشابة معرفة عصرية بدينهم وتراثهم الثقافي، فإن هؤلاء الشباب سيفتقدون للأدوات الفكرية الضرورية التي تمكنهم من خلق مكان خاص بهم في المجتمع الغربي. على مدى عقود سابقة لم تتوقف عملية اندماج المسلمين في مجتمعاتنا العلمية، ومن الضروري أن يحظى الشباب المسلمون بالفرصة ليسهموا في التطورات الاجتماعية في سياق تحترمُ فيه هويتهم الإسلامية. وهذا يعني أن يتحملوا مسؤولياتهم الاجتماعية كمواطنين مسلمين ناضجين في مجتمع يعتبرونه مجتمعهم.

الإسلام هو تقليد ديني عالمي كما هو أوروبي. ومن أجل المسلمين، بل ومن أجل المجتمع الأوروبي عامة، فإن دراسته يجب أن تتحرر من القيود الكولونيالية للاستشراق الأكاديمي.

إن تعليم وتدريب العلماء المسلمين كخبراء في القرآن والحديث ومصادر أخرى للإسلام، سيمكّن الإسلام من تطوير مفاهيم للمواطنة المسؤولة على قاعدة الاجتهاد، خاصة إذا كان هذا التدريب يهدف إلى فهم كامل للظروف الاجتماعية السائدة في أوروبا. وينبغي القول: إن المسلمين الأوروبيين، بصرف النظر عن انتمائهم العرقي، يلعبون فعلاً دوراً نشطاً في عملية التفاعل الاجتماعي هذه، عن طريق خلقهم – أو اشتراكهم في خلق – مؤسسات أكاديمية جديدة.[٣٦]

في فضاء القسم الأكاديمي وعلى أساس منهج شامل (يتضمن تدريباً في علوم اجتماعية وثقافية ذات صلة)، يمكن للعلماء المسلمين أن يتزودوا بالمعرفة المحددة والمهارات

المطلوبة للتعامل بشكل ملائم مع اهتمامات المسلمين في المجتمعات الأوروبية. وفي ما يتعلق بتدريبهم الديني الكامل واهتمامهم الخاص، فإن المتخرجين المسلمين سيجدون ذلك في مجموعاتهم الدينية الخاصة (كما هي الحال مع زملائهم الكاثوليك والبروتستانت وآخرين).

وعلى أساس المساواة مع خريجي عقائد أخرى، يستطيع الخريجون الأكاديميون المسلمون، رجالاً ونساءً، أن يسعوا لمهنة إمام، أو أستاذ أو عضو مجلس روحي، إلخ. وسيتمكن هؤلاء الخريجون المزودون بالمهارات والخبرة من الاعتناء بإخوانهم المؤمنين وبشركائهم الآخرين في الوطن: كبار السن، والمرضى، والصغار، إلخ. وبذلك فإنهم يسهمون إيجابياً في تحقيق مجتمع أوروبي أكثر اندماجاً وتجانساً.

مراجع:

-ألبرت باستيني، ١٩٩٨، **الإسلام في بلجيكا: تناقضات وآراء**، غيرهولم وليتمان، ص: ١٣٢-١٤٣.

-روجر بالارد، **الإسلام وبناء أوروبا**، شديد وكوننغسفلد، ص: ٥١-٥١.

-برايان بيدهام، ١٩٩٤، **مسح للإسلام. ليس مرة أخرى بحق السماء**، الإكونوميست، ٦ آب، ١٩٩٤.

-مارتن بيرنال، ١٩٩١، **أثينا السوداء. الجذور الأفرواسيوية للحضارة الكلاسيكية**، مجلد ١، إبتداع اليونان القديمة، ١٧٨٥/١٩٨٥، لندن.

-نورمان دانيال، ١٩٩٣، **الإسلام والغرب. صناعة صورة**، أكسفورد.

-داسيتو ونونيمان، ١٩٩٦، **الإسلام في بلجيكا وهولندا: نحو دراسة رموز إسلام «مزدرع»**، نونيمان ونبلوك، ص: ١٨٧-٢١٧.

-محمد عابد الجابري، ١٩٩٧، **صدام الحضارات أو صراع المصالح؟** برشلونة، ص: ٣٢٤-٣٣١.

-غيرهولم وليتمان، ١٩٨٨، **الحضور الإسلامي الجديد في أوروبا الغربية**، لندن.

-فريد هاليداي، ١٩٦٦، **الإسلام وخرافة المواجهة، الدين والسياسة في الشرق الأوسط**. لندن.

-ألبرت حوراني، ١٩٩٢، **الإسلام في الفكر الغربي**، كامبردج.

-صموئيل هانتنغتون، ١٩٩٣، **صراع الحضارات؟**، فورين أفيرز، صيف ١٩٩٣.

-كوننغسفلد وفان سيورد، ١٩٩٥، **الإسلام في أوروبا**، في (انسيكلوبيديا أوكسفورد للعالم الإسلامي الحديث)، إيسبوزيتو، نيو يورك وأكسفورد، مجلد ٢، ص: ٢٩٠-٢٩٦.

-علي مراد، ١٩٩٢، **الإسلام المعاصر. هل أعرفه؟**، باريس.

-نونيمان ونبلوك، ١٩٩٦، الجاليات المسلمة في أوروبا الجديدة.

-بولياكوف، ١٩٧٤، **الخرافة الآرية: تاريخ من الأفكار العنصرية والقومية في أوروبا**، لندن.

-أندريا ريا، ١٩٩٨، **الهجرة والعنصرية في أوروبا**، بروكسل.

-أندريا ريا، ١٩٩٨، **العنصرية الأوروبية أو صناعة ما «دون الأبيض»**، في (ريا ١٩٩٨)، ص: ١٦٧-٢٠١.

-مكسيم رودنسون، ١٩٧٤، **الصورة الغربية والدراسات الغربية عن الإسلام**، في «إرث الإسلام» من تأليف شاخت وبوسورث، أوكسفورد، ص: ٩-٦٢.

-إدوارد سعيد، ١٩٩١، **الاستشراق**. مفاهيم غربية عن الشرق. كتب بنغوين.

-شديد كوننغسفلد، ١٩٩٥، **الحرية الدينية وموقع الإسلام في أوروبا الغربية. فرص وعقبات أمام الحصول على حقوق متساوية**. كامبن.

-شديد وفان كوننغسفلد، ١٩٩٦، **المسلمون على الهوامش. الردود السياسية على وجود الإسلام في أوروبا الغربية**، كامبن.

-مارك سوينفدو، ١٩٩٨، بناء «خطر المهاجرين» في الفلاندر، ١٩٣٠/١٩٨٠، في: ريا، ص: ١٠٧-١٣٠.

الهوامش:

(١) انظر صموئيل هانتنغتون، صراع الحضارات، ١٩٩٣

(٢) بعد اختفاء ما سُمي «الخطر الأحمر» – الشيوعية –، بدأ استخدام «الخطر الأصفر» الآسيوي و«الخطر الأخضر» الإسلامي، في فكرة هانتنغتون عن «الصراع». وحول هذا الاستخدام للألوان من قبل الفكر الغربي بهدف تأسيس هويته، أنظر محمد عابد الجابري «صدام حضارات أم صراع مصالح؟»، ١٩٩٧، ص٣٢٧.

(٣) من أجل نقاش نقدي بليغ لمقولة هانتنغتون كما طبقت على العلاقة بين «الإسلام والغرب»، أنظر برايان بيدهام، ١٩٩٤.

(٤) فريد هاليداي، ١٩٩٦، «الإسلام وأسطورة المواجهة، الدين والسياسة في الشرق الأوسط»، ص: ١٦١.

(٥) وجهة نظر نيوبار أن «العرق هو القاعدة الأساسية التي يتأسس عليها التاريخ، والمبدأ الأول الذي يجري العمل طبقاً له. إيمانه بـ«العرق الآري» لم يقتصر على دعوته لشهر الحرب على الإسلام، بل إنه في محاضراته الأكاديمية دافع عن الاستعمار الأوروبي بشكل عام. برأيه. أن «السيطرة الأوروبية عنت دعم العلم والأدب، تماماً كما عنت دعم حقوق الإنسان. إن الحؤول دون تدمير قوة بربرية يعني ارتكاب عمل الخيانة ضد الثقافة الفكرية والإنسانية». أنظر الاقتباسات في مارتن بيرنال، «أثينا السوداء»، ١٩٩١، ص: ٣٠٤-٣٠٦.

(٦) للمفارقة التاريخية أن ابن رشد (ولد في قرطبة عام ١١٢٦ وتوفي في مراكش عام ١١٩٨) جُعل منه رائداً لعقلانية رينان (المعادية للدين). «إبن رشد المفكر الحر»، هو شبح ما زال يؤرق اليوم بعض الدوائر الأكاديمية في الغرب.

(٧) أنظر مقالته المشهورة سيئة السمعة «عدم تساوي الأعراق البشرية»، ١٨٥٣-٥٥. يوصف جوزف أرثر، كونت دي غوبينو (١٨١٦-١٨٨٢) في دوائر المعارف ك «مستشرق فرنسي، ديبلوماسي ومفكر».

(٨) مثل جوهان هيردر (١٧٤٤-١٨٠٣) فأفكاره عن «الأمة» كمصدر للحقيقة. أنظر مثلاً «الإسلام في الفكر الأوروبي» لـ ألبرت حوراني، ١٩٩٢، ص: ٢٥.

(٩) حول رينان، انظر حوراني، ص: ٢٨-٢٩، وإدوارد سعيد، «الاستشراق»، ١٩٩١، الفصل الثاني، وسلفستر دوساسي وإرنست رينان: «علم الإنسان العقلاني والمختبر الفلسفي»، ص: ١٢٣-١٤٨، وكذلك الإسلام المعاصر، لعلي مراد، ١٩٩٢، ص: ٤٠-٤٢.

(١٠) حول «الآريانية»، انظر بولياكوف، «الأسطورة الآرية: تاريخ الأفكار العنصرية والقومية في أوروبا»، ١٩٧٤.

(١١) في مؤتمر برلين عام ١٨٥٥، قسمت القوى الاستعمارية الأوروبية القارة الأفريقية في ما بينها.

(١٢) دانيال نيب، «الإسلام والغرب»، ١٩٩٣، ص: ٣٢٧. أنظر أيضاً مكسيم رودنسون، «الصورة الغربية والدراسات الغربية عن الإسلام»، ١٩٧٤، ص٤٩. ود. بالارد «الإسلام وبناء أوروبا»، ١٩٩٦.

(١٣) رودنسون، استشهاد سابق ص٤٨: «في العصور الوسطى، كان الشرقي يعتبر عدواً بغيضاً، ومع ذلك كان بمستوى الرجل الغربي. في تنوير القرن الثامن عشر والإيديولوجيا التي نجمت عن الثورة الفرنسية، كان الشرقي إنساناً، الآن، أصبح مخلوقاً منفرداً معزولاً وسجين خاصيته، شيئاً يثير العطف. هكذا ولد مفهوم «الإنسان الإسلامي» الذي لم يتم التخلي عنه لغاية اليوم».

(١٤) غيرهولم وليتمان، «الوجود الإسلامي الجديد في أوروبا الغربية»، ١٩٨٨.

(١٥) حتى بقاءها مستقبلاً يبدو في خطر: بعد البوسنة، كانت كوسوفو «المحطة» التالية في عملية «التطهير المعادية للمسلمين». أنظر المساهمات في أوروبا الشرقية في «المجموعات المسلمة في أوروبا الجديدة»، نونيمان ونبلوك، ١٩٩٦.

(١٦) أنظر فان كوننغسفلد، «الإسلام في أوروبا»، في Oemiw، مجلد٢، ص: ٢٩٠.

(١٧) غيرهولم وليتمان، مصدر سابق، ص: ٣.

(١٨) حول «نموذج الطرد» هذا، كمنطق عنصري أوروبي مثالي، انظر اندريه رِيا «العنصرية الأوروبية أو صناعة «ما دون الأبيض»، ١٩٩٨، ص: ١٨٢.

(١٩) كتبت مساهمتي في النصف الثاني من حزيران ١٩٩٨.

(٢٠) في حقيقة الأمر أن معظم هؤلاء الشباب ولدوا هنا كجيل ثان أو ثالث من المهاجرين.

(٢١) مصطلح «العداء للإسلامية» أدخله هاليداي، ١٩٩٦، ص: ١٦٠ كي «يدل على أيديولوجيا منتشرة قلما عبّرت بلغة دينية صافية، وإنما بخليط من البلاغة والأيديولوجيات».

(٢٢) انظر مارك سينغيدو، «خلق خطر المهاجرين» في الفلاندر، ١٩٣٠ – ١٩٨٠، ١٩٩٨، ص: ١٠٧– ١٣٠.

(٢٣) هاليداي، مصدر سابق.

(٢٤) قوة المشاعر العنصرية في عدة بلدان في الاتحاد الأوروبي ظهرت بصراحة في استطلاع الرأي الذي نظّمته المفوضية الأوروبية في نهاية «السنة الأوروبية ضد العنصرية»، أنظر العنصرية ورهاب الأجانب، المقياس الأوروبي لإستطلاع الرأي، الذي قدم في اللوكسمبورغ، ١٨–١٩ كانون الأول ١٩٩٧. سجل البلجيكيون أعلى الأرقام في معظم الأسئلة، حيث اعترف ٥٥٪ من البلجيك المستطلعين بأنهم عنصريون (٤٨٪ في فرنسا، ٤٢٪ في النمسا). لتحليل هذه الأرقام انظر اندريا رِيا ١٩٩٨.

(٢٥) دراسة الرموز في أربع فئات، أنظر شديد وفان كوننغسفلد، «الحرية الدينية وموقع الإسلام في أوروبا الغربية»، ١٩٩٥، ص: ٣. أنظر أيضاً داسيتو ونونيمان، «الإسلام في بلجيكا وهولندا: نحو دراسة رموز إسلام «مزدرع»، ١٩٩٦، ص: ١٨٧–٢١٧.

(٢٦) أرقام مأخوذة من شديد وفان كوننغسفلد، ١٩٩٥، ص: ٣.

(٢٧) باستيني، «الإسلام في بلجيكا: تناقضات وآراء»، ١٩٨٨، ص: ١٣٦. يرى الكاتب «ميلاً نحو تذكير (من ذكر) أماكن العبادة في ظروف الهجرة».

(٢٨) المصدر نفسه، ص: ١٣٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص: ١٣٣.

(٣٠) الأكبر هي الكثلكة، وعدد الكاثوليك البلجيك يربو على ثمانية ملايين، لكن هذا العدد غير واقعي كونه يرتكز على موقع الكنيسة الممتاز كمؤسسة (كافة البلجيك يُعتبرون كاثوليك «بالولادة»).

(٣١) باستيني، مصدر سابق، ص: ١٤٢.

(٣٢) لكن، وكما قلنا سابقاً، في الفترة التالية لإزالة تأثيرات الثورة الفرنسية، بقيت الكثلكة، ولا تزال، تحتفظ بوضع خاص ممتاز مقارنة بباقي الطوائف في بلجيكا.

(٣٣) منذ ذلك الوقت، مُنحت المسيحية الأرثوذكسية والحركة الإنسانية وضعاً مشابهاً لوضع الديانات الأخرى «المعترف بها».

(٣٤) أو، لأكون أكثر تحديداً: من قبل المجموعات (الفلمنكية، الفالون والألمانية) التي تشكل الدولة الفيدرالية البلجيكية. تجدر الملاحظة أن التعليم الرسمي في بلجيكا لا يضم أكثر من ٥٢٪ من رواد المدارس، أما الباقي فيلتحق بما يسمى مدارس «حرة»، أي مؤسسات كاثوليكية (التي تموّلها الدولة).

(٣٥) من أجل فحص أو مسح وضع المسلمين في بلدان الاتحاد الأوروبي، أنظر أيضاً المساهمات في: شديد وفان كوننغسفلد، ١٩٩٦.

(٣٦) أمثلة على هذا: الجامعة الإسلامية الدولية، إبن رشد، في الأندلس (في قرطبة)، مؤخراً، تأسيس الجامعة الإسلامية في روتردام، هولندا. تأسيس مركز للإسلام في أوروبا في جامعة غنت (بلجيكا) ويديره مسلمون وغير مسلمين.